العرب
الأحد 2021/11/14
السنة 44 العدد 12240

لا شيء في العقل ما لم يكن من قبلُ في الواقع

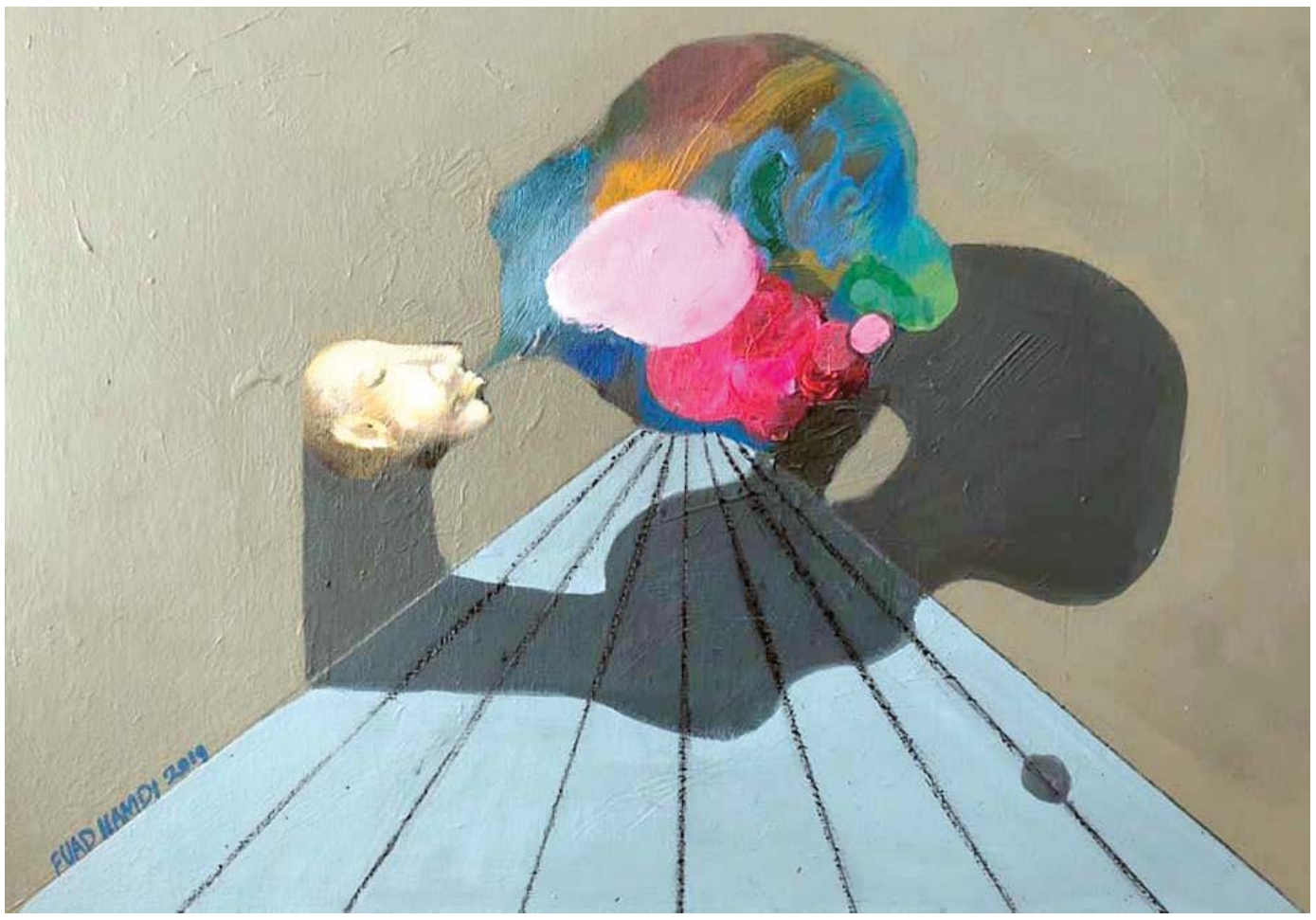

ما بين الواقع والتصورات (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

أحمد برقاوي
كاتب فلسطيني

لنقل، بداية، إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما دون أن يفكر وفق قواعد المنطق، بل إذا قال قولا خارج قواعد المنطق فإنه لا يفكر أصلا. ولكن يجب أن نضيف أن ليس كل تفكير مستند إلى المنطق الصوري هو بالضرورة تفكير سليم، وأقصد بسليم هنا الصحة الواقعية لأحكامنا المنطقية.

غالبية الناس لم يدرسوا المنطق الصوري ولا يعرفون قواعده ولكن ما من إنسان يقول: أنا موجود الآن وغير موجود الآن، أو إن الماء الحار بارد، أو إن جميع البشر بكمٌ، أو إن التفاحة هي حبة كرز، أو إن بعض الكلاب بشر، بل ما من إنسان عادي يخرق قواعد القياس في حياته إلى الدرجة التي يبدو فيها أحمق. فليس لأحد أن يقول: كل إنسان مائت عمر إنسان إذن عمر غير مائت.

المفهوم كلمة مجردة تعبر عن وقائع متشابهة أو ذات صفات جوهرية متشابهة يصوغه العقل بعملية التجريد والتعميم

هذا كلام عادي يعرفه القاصي والداني، قدمنا به للمشكلة، أو لشرح الأطروحة التالية: المنطق الصوري ليس صوريا فقط، إنه منطق واقع، وإذا قلت إنه منطق واقع فكي لا أقول إنه منطق الواقع بالإطلاق، فليس كل واقع يندرج تحت قواعد المنطق الصوري. وتعريف المنطق الصوري هو: أشكال التفكير الصحيح.

والحكم كي يكون صادقا يجب أن يكون واقعيا، فنسبة محمول إلى موضوع لا تكون صحيحة إلا إذا كان الموضوع والمحمول يشيران إلى ما هو واقعي.

فالحكم: الإنسان ناطق. قول صحيح لأن الإنسان ناطق فعلا. وبعض الناس بُكم قضية جزئية صحيحة لأن بعض الناس بكم.

ولكن لو قلت الإنسان حيوان مجنح، فهذا الحكم خاطئ، لا لأنه خرق قواعد المنطق، فالنسبة الصورية صحيحة، بل لأنه لا وجود لإنسان مجنح واقعيا.

إذن يمكن أن يلتزم العقل بشكل التفكير وقواعد المنطق الصوري، بمعزل عن الواقع، ولكنه في هذه الحال لا يكون صادقا.

ونقد المنطق الصوري تم وفق هذه الفكرة، غير أن نقد المنطق الصوري لا يقود إلى خرق قواعده، ولا يمكن لإنسان طبيعي ملتزم بقواعد العقل أن يطيح بقواعد المنطق الصوري.

والمفهوم، بوصفه أساس الحكم، لا يكون مفهوما إلا إذا كان واقعيا مهما كان مجردا. ولا تكمن واقعية المفهوم المجرد في أن دلالته قائمة في الواقع الحسي فقط أو ماله علاقة بالحواس الخمس.

فالحجر والهوية مفهومان مجردان واقعيان. الحجر: جسم صلب موجود في الطبيعة مادته صخرية بركانية بازلتية رسوبية.. إلخ، وتراه بالعين وتلمسه. الهوية لا وجود حسيا لها. لكنها ذلك الوعي الموجود لدى البشر بأنهم يحوزون على صفات تميزهم عن غيرهم. وهذا الوعي موجود ويعبر عنه باللغة.

جميع مفاهيم العلم بهذا مفاهيم واقعية بالضرورة، وإلا لا يستطيع العلم أن يتحول إلى وقائع تقنية. وهنا لا مشكلة.

المشكلة بالتصورات. والمقصود بالتصورات تلك الوقائع المتخيلة التي يتصورها عقلنا. ويحولها إلى أداة معرفية. ويظن بعضهم بأن التصور الذي عبرت عنه كلمة هو مفهوم. وهنا تكمن المشكلة. وأنا لا أتحدث عن تصور الشيء بعد غيابه المرتبط بالذاكرة، ولا تصور صورة هندسية لبيت ما قبل إنشائه. بل عن تخيل موجودات لا وجود لها وأخذت صورة المفهوم دون أن تتوافر لها طريقة صياغة المفهوم بوصفه كلمة مجردة تشير إلى وقائع.

وهناك فرق كبير بين المفاهيم الحسية والمفاهيم التجريبية والمفاهيم النظرية. وهذا موضوع يحتاج إلى شرح مفصل، ولمن أراد أن يستزيد فليرجع إلى كتاب كومبف أورجيف "المنطق الديالكتيكي" الذي ترجمناه عن الروسية عام 1984، وصدر عن دار دمشق.

قلنا إن المفهوم كلمة مجردة تعبر عن وقائع متشابهة، أو ذات صفات جوهرية متشابهة، يصوغه العقل بعملية التجريد والتعميم، ضاربا صفحا عن الصفات غير الجوهرية.

يكون التصور مفهوما زائفا وهميا إذا كان ناتجا عن تركيب صفات واقعية لمتخيل غير واقعي ولا وجود له أيّ هذا التركيب، واقعيا. وبالأصل لا يمكن للعقل أن يتصور مفاهيم دون وقائع.

فالغول مثلا تصور، كلمة تشير إلى وجود كائن له صفات مخيفة. الغول لا وجود واقعيا له. لكنه تركيب من جسم هائل وأسنان كبيرة بارزة وأظافر طويلة وشعر كثيف وحجمه ضخم.. إلخ. كل هذه الصفات هي صفات مستقاة من الواقع وراح العقل يركب بينها ويعد مفهوما اسمه الغول. فالجسم والسن والأظافر والشعر والحجم مفاهيم حسية واقعية، راحت المخيلة تجمع بينها في صورة ما وأطلقت على هذا التركيب المُتخيل كلمة غول.

ولهذا قالت العرب المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي. فإذا تركنا الخل الوفي جانبا بوصفه مصطلحا يشير إلى خيبة الأمل بوجود صديق وفيّ، فإن الغول والعنقاء متخيلات لا وجود واقعيا لها.

ومع ذلك فإن الوعي الشعبي قد يتعامل معهما كحقيقتين.

ولقائل أن يقول لماذا اعتبرت الغول مفهوما تصوريا وهميا وهو أمر متعارف عليه ولم تعتبر غيره من المفاهيم التي يؤمن بها الناس إيمانا جازما كالملائكة مثلا.

إن الذي يؤمن بالملائكة يؤمن هو الآخر بمفهوم تصوري مركب من صفات واقعية. والذي يؤمن بها يقر أنها لا وجود لها في الواقع الأرضي. لكنه لا يؤمن بأنها وهمية، بل واقعيتها في عالم آخر. إنها بالنسبة إلى إنسان ملحد تصور وهمي بالضرورة، أي مفهوم وهمي.

وهناك العشرات من المفاهيم التصورية الوهمية التي تعيش مستمرة منذ الآلاف من السنين في عقول الناس وتحرك سلوكهم، وتقوم بوظيفة اجتماعية وسياسية وأخلاقية في كل المجتمعات سواء أكانت وظيفة سلبية أم وظيفة إيجابية.

بل إن الكثير من البشر يقومون عبر، شبه المفاهيم التصورية الوهمية، بنشاط حياتي شديد التأثير في الواقع. حسب المرء أن يتأمل مفاهيم: الوعد الإلهي، شعب الله المختار، يهوه، الهيكل.. إلخ، كي يعرف الوظيفة التي تقوم بها هذه الأوهام في حياة الناس.

هناك المفاهيم الواقعية التي لا يمكن أن نشير إليها حسيا، لكن وجودها الواقعي قائم في صفات مركبة أي يركبها العقل، لكنه، أي هذا التركيب، موجود واقعيا.

خذ مثلا مفهوم الحرية: لا وجود في الواقع بالأصل لجسم اسمه الحرية، الموجود بشر يسلكون سلوكا ما.

السلوك الحر هو الناتج عن وعي وشعور بأن صاحبه حر في الاختيار والتفكير والسلوك دون أن يكون مقصود السلوك إيذاء الآخر. ونحن نستطيع أن نعرف نقيض هذا السلوك بالعبودية التي تعني أن هناك كائنا بشريا يسلك دائما وفق أوامر سيد له مهما كان هذا السيد واقعيا أو متخيلا.

ولعمري بأن التمييز بين المفهوم والمتصور المتخيل شرط ضروري للتفكير الواقعي والمنطقي، وشرط لازم للتحرر من الوعي الأسطوري والخرافي وما شابه ذلك.

ومن الأسئلة المهمة المتعلقة بالتفكير المنطقي السؤال الآتي: هل قوانين العقل هي نفسها قوانين الواقع أم سابقة على قوانين الواقع وموجودة وجودا فطريا في الدماغ البشري؟ لا شيء في العقل ما لم يكن من قبلُ في الواقع.

أي شيء تفعله أكثر من ثلاث مرات يصبح عادة

عبدالعزيز المختار أبوشيار
كاتب مغربي

"خير عادة ألا تكون لك عادة".. عبارة قرأتها منذ عقود خلت أثارت اليوم في ذهني عدة تساؤلات. فإذا كانت العادة سلوكا مكتسبا يتميز بالآلية والتكرار لأفعال اكتسبها الإنسان أو هي نتائج أفعال متكررة حتى تصبح شيئا من كيان الشخصية، ويجد بعضنا صعوبة في تركها ألا يكون الإنسان في هذه الحالة سجين هذا السلوك؟ وتكون العادة بذلك سلوكا سلبيا يقيّد إرادة الإنسان في التغيير ويمنعه من أن يطرق أبوابا أخرى متنوعة ويجوب آفاقا مختلفة أكثر أهمية ووساعة وحرية؟ وهل سنفقد شيئا في الحياة إن عشناها بغير هذا الفيسبوك أو الواتساب أو..؟

لكن في المقابل لو تخيلنا حياة الإنسان دون عادة لوجدناها سلسلة من التفكير المستمر والمهل في الأمور التافهة والبسيطة، وهذا ما ذهب إليه جان جاك روسو الذي اعتبر العادة بمثابة السجن الذي يصنعه الإنسان لنفسه حين يتعود على سلوكات معينة، حيث لا يستطيع التخلص منها وبالتالي تقف حاجزا أمام كل تجديد أو تغيير وتضعف بذلك إرادة الإنسان حتى تنتهي تماما هذه الإرادة بفعل تحكم العادة في سلوكه فلا يستطيع التخلص منها.

وقد ذهب دوركايم إلى اعتبار العادة أمرا سلبيا إذ تعرقل كل إبداع وكل تجديد، بل هي جمود وتقوقع ناهيك عن أن هناك عادات سيئة لا يستطيع معظم الناس الإفلات منها مثل التدخين والخمر والمخدرات والقمار وغيرها من السلوكات التي تتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية، بل لقد ذمّ القرآن الكريم المتمسكين بعاداتهم الوثنية التي وجدوا عليها أسلافهم، لكنه أبقى على بعض ما تعوّد عليه العرب كعيدي الفطر والأضحى بعد تطهيرهما وتخليتهما من شوائب الوثنية وتحليتهما بالقيم الدينية الإيجابية، ومن جهة أخرى ما أقبح أيضا أن تُعوّد الناس على أمور إنْ تركْتَها غضبوا منك وأنكروا عليك.

وفي المقابل يرى آخرون أن العادة لها دور أساس في حياة الإنسان ناظرين إليها نظرة إيجابية تقوم على اعتبار أن العادة هي المحرك الأساس لسلوك الإنسان وتكيفه مع متطلبات الواقع، إذ يرى أرسطو أن العادة أداة في يد الإنسان تساعده على القيام بكل الأعمال بسهولة إلى درجة أنه شبّه العادة بالغريزة حين اعتبرها طبيعة ثانية، بالإضافة إلى أن العادة تساعد على الاختصار في الجهد والوقت الذي تستغرقه بعض الأعمال، ومن هنا يجدر بنا أن نتساءل: أليست المداومة على القراءة والكتابة والفنون والرياضة وغيرها من الأعمال المحمودة من العادات الإيجابية النافعة؟

وهل الإدمان على مواقع التواصل الاجتماعي عادة سلبية أم إيجابية؟ أليس التخلي عن جدارك الأزرق لبعض الوقت من أجل التفرغ لما هو أولى؟ حسب ترتيب الأولويات؟ الجواب يكمن في صدر بيت أبي الطيب المتنبي حين قال: لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا.

جلّنا يعلم نظرية في علم الاجتماع تقول "الإنسان كائن اجتماعي بطبيعته"، أي أنه يحب العيش في جماعات ومجتمع وسط عادات وتقاليد وموروث ثقافي، لم نسمع يوما أن شخصا مفردا أقام حضارة ما، ولكن جماعات من الناس هي من تشيّد الحضارات ونتجت عنها ثقافتها وعاداتها الخاصة بها، منها ما هي عادات إيجابية ومنها ما هي عادات سلبية.

فماهي العادات والتقاليد؟ كنا نتساءل من صغرنا عن أشياء وأفعال أصبحت عادات لا نفارقها ولا تفارقنا، فكيف أصبحت بعض الأفعال عادات..؟

يقال إن أي شيء تفعله أكثر من ثلاث مرات يصبح عادة، والعادة هي الشيء المألوف الذي يفعله الإنسان دون تفكير ولا يشعر بضيق أو تعب.

هناك فرق جوهري بين العادة والفطرة، فالعادة مكتسبة نتيجة استمرارية الممارسة أما الفطرة فشيء خارج عن إرادتنا

العادة تكوّنت من أفعال مستمرة لشي ما أو حدث ما، ويزخر مجتمعنا العربي بكامل أقطاره بالعديد من العادات والتقاليد منها ما هو غريب، ومنها ما هو طبيعي ومنها ما هو مناف للدين، ومشكلتنا في المجتمع العربي يقدّسون العادات والتقاليد.

العادات هي موروث ثقافي اجتماعي، يحاول المجتمع المحافظة عليها وعدم المساس بها. وهناك فرق جوهري بين العادة والفطرة، فالعادة هي شيء مكتسب نتيجة استمرارية ممارسة الأفعال نفسها حتى أصبحت عفوية ولا إرادية، وهناك دافع يدفعنا إلى ممارستها. أما الفطرة فهي شيء خارج عن إرادتنا شيء جُبلنا عليه مثل الغريزة الجنسية عند البشر، وغريزة ميلنا للجنس الآخر، وغريزة الأكل والشرب.

العادات هي نتائج أفعال متكرّرة حتى تصبح شيئا من كيان الشخصية، ويجد بعضنا صعوبة في ترك بعض العادات، وبعض العادات عادات مجتمعية تربّينا عليها وتستمد قوتها من خوف المجتمع كله من التغيير، وينظرون إلى أي شخص يرفض بعض عادات المجتمع على أنه غريب وغير طبيعي.

لذلك يحاول الآباء زراعة العادات والتقاليد في أولادهم وكأنها جزء لا يتجزأ من هويتهم وشخصيتهم حتى يكبروا وهم متأقلمون معها لا ينفرون منها، فالمجتمع الشرقي من شدة اهتمامه بالعادات لا يرى الاختلاف والتنوع ميزة، بل يراهما خلافا ومشاكل.

نلاحظ في الوطن العربي تنوع عادات وثقافات، شيء جميل ورائع ولكن ثقافة "القولبة وإن كل الناس لازم يكونوا مثلنا" مسيطرة على أفكار المجتمع.

إن المجتمع الذي يرفض الاختلاف والتنوع ويحاول عمل نسخ متطابقة من أفراده مجتمع ضعيف وغير متماسك.

إن الاختلاف سنة الله في الكون وهو أساسي في استخلاف الله للإنسان في الأرض.

ويعيش الإنسان بين هذا وذاك لا يجرؤ على تغيير شيء من عادات مجتمعه، بل إن البعض يوصلها إلى درجة التقديس، وبعض العادات قد تكون عائقا أمام التفكير والطموح.

كلنا نتذكر طفولتنا وكثرة طموحنا وأسئلتنا المتكررة والتي اعتبرها آباؤنا سخافة، وعندما كبرنا وحملنا عادات مجتمعنا "وأصبح هذا عيبا، وهذا ما يصلح تسأل كذه، وإيش بيقولوا الناس علينا"، تخلينا عن فكرة التفكير والأسئلة، عندما سئل أينشتاين كيف وصل إلى كل هذا قال: ببساطة تخيلت فترة الطفولة وحاولت أن أضع الأسئلة نفسها الآن.

كما أن المجتمع يقدّس عاداته فهو يمقت وينكر أيّ شخص يحاول الخروج عن عاداته والتفكير بعيدا عن عاداته وتقاليده، "التفكير خارج الصندوق" هو من حوّل أشخاصا عاديين إلى علماء ومشاهير ومتميزين، هو من جاء بأينشتاين وأديسون وستيف جوبز وغيرهم.

الخروج عن عادات المجتمع ليس سهلا، بل يتطلب عزيمة قوية وإرادة لأن الشخص سوف يلاقي معارضة قوية من المجتمع، لأن المجتمع يميل إلى الاستقرار بما هو عليه ويخاف التغيير وعواقب التغيير.

ليست كل عادات المجتمع عادات سيئة، فرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بُعث في قوم وصفوا بأنهم في جاهلية، فقال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". فقد كانوا يحملون عادات مجتمعية أخلاقية منها نصرة الضعيف وإغاثة الملهوف وغيرهما، وهناك عادات مجتمعية إيجابية مثل عادة القراءة وعادة ممارسة الرياضة وعادة صلة الأرحام، والعادة هنا قد تكون نوعين إما عادة روتين أو عادة وعي.

الروتين هو تلك الأفعال التي نفعلها بشكل مستمر ومكرر إلى درجة تتشابه عندنا الأيام، فكل يوم نسخة متطابقة عن قبلها إلى درجة الملل، الوعي هنا هو إدراك ما نفعله باستمرار وفوائد ما نفعله، الوعي يزيل الرتابة ويصنع التجديد والتجديد يزيد النشاط والإنتاجية للفرد.

لنكن أحرارا في اختياراتنا وفق ما يجدي، ولا نجعل من أنفسنا عبيدا وأسرى لعاداتنا.

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

العادات عائق أمام التفكير والطموح (لوحة للفنان خالد التكريتي)